# العـــــقـــــاب

علي القـــاســـــمي ❖

عندما قدَّمتْها خالتُها إليه، نظرتِ الشابةُ بعينَيْها الواسعتين الكحيلتين إلى ملامح وجهه المُتغضّن، فألْفتْ نفسَها مفتونةً بوجهه، وكلماتِه الرقيقة، ولمسةِ يده القويّة وهو يصافحها. أشعرها بشيء من الألفة القديمة. أحسّتْ بوجيب قلبها وارتعاشِ شفتيْها المكتنزتيْن. وتعثّرتْ كلماتُ المجاملة على لسانها:

ـ سعيدةٌ ...بلقائكَ... أستاذ ...عبد اللطيف.

ـ وماذا ستفعلين في العاصمة، يا آنسة لمياء؟

ـ سألتحق بالجامعة لمواصلة دراستي العالية في العلوم الاقتصادية.

ـ بالتوفيق والنجاح، إنْ شاء الله.

عندما غادرتا المكتب، سألتْ لمياءُ خالتَها:

ـ هل الأستاذ عبد اللطيف متزوِّج وله أطفال؟

ـ لا أدري على وجه التأكيد. سمعتُ أنّه أرمل وله ابنةٌ وحيدة تواصل دراستَها في الخارج. لماذا؟

قالت لمياء:

ـ عندما رأيتُه شعرتُ كأنّه والدي. في الحقيقة تمنّيتُ لو كان والدي.

قاطعتْها خالتها وقد ارتفعتْ نبرةُ صوتها:

ـ لمياء، أنتِ تتحدّثين دومًا عن أبيكِ. سبق أن قلتُ لكِ مرارًا وتكرارًا إنّ أباك لم يعُدْ هنا منذ أحد عشر عامًا. لقد رحل إلى بلاد أخرى، وتزوّج امرأةً أخرى، وكوّنَ عائلةً أخرى. انسيه. انسي الموضوعَ تمامًا، كما نسي هو حياته السابقة.

قالت لمياء بنغمةِ اعتذار:

ـ أنا لم أكُن أتحدّث عن والدي، بل عن الأستاذ عبد اللطيف.

ما لبثتْ لمياء أن استقلّتْ وخالتَها الحافلةَ عائدتيْن إلى بلدتهما. وطوال الرحلة التي استغرقتْ ثلاث ساعات، لم تستطع لمياء أن تُبعِد طيفَ الأستاذ عبد اللطيف عن مخيّلتها. كانت نظراتُها تسرح في الأفق البعيد عبر المروج المُخضرّة المترامية نحو الشمس الغاربة التي تَحْجبها، بين الحين والآخر، غيومٌ قادمةٌ من جهة الشرق.

(لا أدري لماذا أُحسّ تجاهه بشعور البنوّة ذاك، على الرغم من عدم وجود شبه كبير بينه وبين والدي كما هو ماثلٌ في الصورة الشمسيّة التي أحتفظُ بها في صوان ملابسي، بعد أن طلبتْ مني أُمّي أن لا أعلّقها على الحائط في غرفتي. ومع ذلك، فإنّ الأستاذ عبد اللطيف يمتلك ذلك الحنانَ الأبويّ الآسِر؛ إنّه حنان قد لا تُدركه كلُّ فتاة، ولكنّني أُحسّ به في أعماقي، يسري إلى قلبي كما تنساب الدماءُ فيه من وريدي. لقد حَرّك عوالمي الداخليّة برقّةٍ منذ اللحظة الأولى مثلَ نسيم عليل يهبّ على شجيْرة أزهار صغيرة، ولكنه أضرم نيرانَ المحبة واللوعة في عروقي. لا بُدّ أنّه يبادلني العاطفةَ النبيلةَ ذاتَها، وأنّه قد تعلّق بي كما تعلّقتُ به، وأنّه سيرعاني تمامًا مثلَ ابنته، وسيوجّهني في دراساتي العليا، بما له من ثقافة عميقة وخبرة طويلة. وعندما ألْتحقُ بالكلّيّة، فسوف

❖ ـ كاتب عراقي يعيش في المغرب.

أستشيره في جميع شؤوني. سيوجّه خطواتي العلميّةَ المقبلةَ بعناية، تمامًا كما يمسك أبٌ حنونٌ يدي ابنته الصغيرة ليعلّمها المشيَ خطوةً خطوة؛ وعندما تنجح في المشي وحدَها بضع خطوات متأرجحة، يتهلّل وجهُه بالبِشر، ويضمّها إلى صدره بقوّة، ويغمر وجهَها بالقُبلات).

❖ ❖ ❖

بعد أسبوعين، اتّصلتْ لمياء هاتفيّاً بالأستاذ عبد اللطيف لتقول له إنّها وصلتْ إلى العاصمة للالتحاق بالجامعة، ولكنّ القسم الداخلي لا يُفتَح قبل أسبوع بسبب عدم الانتهاء من الإصلاحات التي أُجريتْ على البناية خلال العطلة الصيفية. وتساءلتْ ما إذا كان بإمكانه أن يستضيفها هذا الأسبوع في منزله. لم يكُن بوسعه الرفضُ والظهورُ بمظهر البخيل، لا سيما أنّ خالتها هي ممثّلةُ شركته في شمال البلاد.

وافتْه لمياء إلى المكتب في المساء عند نهاية العمل. اصطحبها بسيّارته إلى منزله المؤلّف من طابقيْن. كانت الخادمة قد هيّأتْ طعامَ العشاء فأعدّت المائدة لهما. تناولا الطعامَ وهما يتحدّثان عن الدراسة ومتطلّباتها العلميّة. وحينما حان وقتُ النوم، اصطحبها بلطف إلى غرفتها في الطابق السفلي، قائلاً:

ـ يمكنك أن تستعملي هذه الغرفة؛ فقد كانت لابنتي قبل سفرها.

ـ شكرًا، تُصبح على خير.

ـ وأنتِ كذلك، تُصبحين على خير، يا آنسة.

بعد دقائق، كانت مستلقيةً في السرير، وهي تطالع رواية **الآباء والبنون** للروائي الروسي إيڤان تورجنيف، لتُعِينها على النوم. ورويدًا رويدًا، أخذت الحروفُ تتماهى، والسطورُ تتوارى من أمامِ ناظريها، ليسرح خيالُها بعيدًا عن الكتاب، ويستقرّ على الأستاذ عبد اللطيف وكلماته الأخيرة.

(لا شك في أنّ اختياره لهذه الغرفة بالذات يؤكّد إحساسي. إنّني أشعر بعاطفته النبيلة تغمرني بالارتياح وتعيدني إلى طفولتي الهانئة. في طفولتي، كان والدي، كذلك، يحملني بين ذراعيه، وهو يضمّني إلى صدره، ويضعني برفق في سريري الذي تشاركني في النوم عليه نُمى الأرانب والقطط والحمائم. كان أبي يقبّلني بحرارة، وهو يقول: «تُصبحين على خير، يا عصفورتي العزيزة.» فكنتُ أتشبّث في عنقه: «لا تذهب قبل أن تقرأ لي شيئًا من قصّتي.» يتناول قصة **عصفورة الأمير** للكاتب العراقي علي القاسمي، من المنضدة بجانب سريري، ويأخذ في القراءة بصوته العميق الدافئ الحنون، فأشعر بالمحبّة تسري في عروقي. ولكي أطيل مكوثَه معي كنتُ أطلب منه أن يريني الصورَ الملوّنة الزاهية المرافقة لنص القصّة، وكأنّني أتحقّق من صحّة ما يقرأ. ويواصل القراءة، وكلّما يوشك أن يغلق الكتاب، أرجوه، بدلال، أن يقرأ لي المزيد. فيقرأ ويقرأ حتّى يسري الارتخاءُ إلى أطرافي. وفي حالٍ بين اليقظة والنوم، أحسُّ به وهي ينحني عليّ، يمسّد شَعري بأصابعه، يقبّل عينيّ، وينسلّ خارجًا من الغرفة).

❖ ❖ ❖

في هذه الغرفة الجديدة في منزل الأستاذ عبد اللطيف، وفي تلك اللحظة التي كانت لمياء مستلقيةً على بساط سحريّ من الذكريات، شعرتْ بظمإٍ إلي لمسات والدها، وبلهفة إلى قبلاته، وبشوقٍ مستعرٍ إلى عناقه. لم يواتِها النوم. راودتْها رغبةٌ مجنونةٌ طاغيةٌ لم تستطع

كبتها. لم تدرِ كم من الوقت مرّ عليها وهي تحاول أن تغمض عينيْها وتنام. وفجأةً ألْفتْ نفسَها تنسلّ من فراشها، تخرج من غرفتها، تسير حافيةَ القدمين، وشعرُها الأشقر الطويل منسدلٌ على كتفَيها مثلَ سنابل الذهب، وليس عليها سوى جلباب النوم الحريريّ الورديّ اللون. تتوجّه إلى غرفة الأستاذ عبد اللطيف في الطابق الأعلى. تضع يدها على مقبض الباب، تديره برفق. ينفتح الباب. تدلف إلى داخل الغرفة المضاءة بنور خافت ينبعث من مصباح أحمر صغير. تخطو خطوتين رشيقتين نحو السرير. ترفع الغطاءَ الذي كان يتدثّر به. تندسّ في الفراش إلى جانبه. تضع ذراعَها البضّة حول عنقه، تمسّده بأصابعها الناعمة، ثم تسرّح كفّها على بقية جسمه في لمسات خفيفة مشتاقة. يسري الدفءُ في الفراش كلّه.

تتحرّك يد الأستاذ عبد اللطيف برفق، تستقر أصابعُه على جبهتها أولاً، ثم تتحوّل إلى خدّيْها الأسيليْن، فشفتيْها المكتنزتيْن، فرقبتِها الطويلةِ العاجيّة. ثم يقترب وجهُه من وجهها. تلفحه أنفاسُها. يدنو صدرُه من صدرها الناهد. كانت الغمامتان على وشك الالتحام لينبعث البرقُ، ويدوّي الرعدُ، ويهطل المطر...

في تلك اللحظة بالذات يدهمها خليطٌ من المشاعر المتضاربة تحملها بعنف إلى أيام صباها.

(كيف تخلّى أبي عنّي، وأنا في مسيس الحاجة إلى حنانه، رعايته، حديثه، نظرته؟ لقد غادر ونحن في أحلى الكلام، والليلُ مُقمِرٌ والبدرُ ما زال شاباً. كان أبي كمَن يغرس نبتةَ وردةٍ، وحين ينمو غصنُها ويشبُّ عن الأرض، يقطع السقيَ عنها، لتذوي ظمأً. أليس ذلك هو الظلمَ بعينه؟! حتّى لو كان أبي على خلاف مع أُمّي، فكيف تسوّل له نفسُه أن يفرِّط بي أنا، يتركني، يُلقي بي مثلَ نفايةٍ بعيدًا عنه، ويسلبني كلَّ العطف الذي عوّدني إيّاه، تمامًا كمَن يسترجع هديّةً منحها لحبيبٍ في مناسبة سارّة؟ لقد تصرّف مثلَ لاعبٍ بارع مُستهتِر ينسحبُ خارجًا من الملعب في أحرج أوقات المباراة، ويتخلّى عن فريقه ورفاقه الذين أحبّوه وعقدوا آمالَهم عليه، من دون إحساس بالمسؤوليّة، وبلا توقير للمواثيق ولا صيانةٍ للعهود، ومن غير أيّ تأنيبِ ضمير. إنّه تصرُّفٌ سيِّئٌ لا يُقرّه أحدٌ يحملُ قلبًا نابضًا. إنّه سلوكٌ لا يمكن تسويغُه بأيّ سببٍ معقول. سلوكٌ خارج عن حدود اللياقة والأخلاق والنواميس. بل هو فعلٌ يثير الاشمئزازَ في النفس).

فجأةً تدفع لمياءُ الاستاذَ عبد اللطيف بكلتا يديْها حتّى يكاد يسقط من السرير، وتصرخ: «لا، ما هكذا... ما هكذا يتصرّف الأبُ مع ابنته.»

**الدار البيضاء**